عبد الرحمن الحاج صالح وأعلام الفكر اللساني العربي قديما وحديثا: منهج تحليل وأسلوب تفضيل.

أ. أحمد قبور

جامعة الدكتور يحي فارس بالمدية

atoz.ahmed@yahoo.com

الملخّص:

يحاول هذا البحث رصد أهم مواقف العلّامة " عبد الرحمن الحاج صالح"- رحمه الله- من خلال مسيرة بحثه اللساني القائم على المزاوجة بين التراث اللغوي العربي منطلقا دونما إغفال أو إقصاء لمستجدات الدرس اللساني الحديث، وتشمل رواد اللغة الأوائل، وبعض اللغويين المحدثين، من خلال التعرض لبعض القضايا اللغوية الجوهرية، في ظل منهج تكاملي يجمع بين التاريخي والوصفي إلى التحليلي حين العرض والمناقشة .

فخلافا لمن ينفي – مغاليا بلا شك - وجود أي أثر للتفكير اللساني عند العرب القدماء، أو لمن يرى ظهور إرهاصاته الأولى في كتابات صاحب كتاب الخصائص، يتصدى العلامة " عبد الرحمن الحاج صالح " رحمه الله – لكل من حاول النفي أو التشكيك في الموروث اللغوي الفذ الذي خلّفه العلماء العرب الأفذاذ من أمثال " سيبويه" وشيخه " الخليل " ومن تبعهما من الفطاحل – على قلة – ممن فقهوا كنه ما أرادوه على مستويي الفكر والمصطلح اللغويين، لا كما فهمه – أو استغلق عليهم الفهم أصلا – بعض المتأخرين من أمثال " ابن السراج " و" ابن مالك" و غيرهما .

وإذا كان بعض رواد الفكر اللساني الحديث – بفعل تأثرهم بالمذاهب اللغوية الغربية - يُزرون بما لا يرقى في نظرهم إلى مسمى " اللسانيات" في الفكر التراثي العربي، ويُعزون أصول كل مشاكل الدرس اللساني العربي الحديث إلى التراث ذاته، كإبراهيم أنيس، تمام حسان، الفاسي الفهري وغيرهم، فإن " الحاج صالح" – رحمه الله- يدحض بالدليل العلمي ما ذهب إليه هؤلاء، مؤكدا أنه لا حديث عن الدرس اللساني العربي إلا في ضوء أسس الفكر التراثي الأصيل الصحيح منطلقا ومنهجا، والتي عليها أرسى قواعد نظريته الخليلية الجديدة - لا مقلدا ولكن مجتهدا - مميزا – رحمه الله- بين تراث وتراث، تراث ذي أبعاد رياضية علمية، توافق نزعة البحث اللساني الحديث، وينبغي أن تكون هي المعتمد في عملية البحث اللساني العربي ذي الشخصية العربية، والتي تبتغي إحلال اللغة العربية محلها الذي ينبغي أن تكون فيه وضعا واستعمالا، ومعالجة ما علق من قضاياه التي لا تزال تراوح مكانها من النقاش العقيم لسانيا إلى اليوم .

الكلمات المفتاحية: التفكير اللساني - التراث اللغوي - التفاضل - علم العربية

عبد الرحمن الحاج صالح: ثقافة ومنطلقا:

يُعتبرُ الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح – رحمه الله- في نظر كثير من الباحثين أَحدَ أهمّ أعلامِ الدّرس اللّسانيّ العربيّ المُعاصر، بَلْ هو من أبرزِ المشتغِلين على التّراث العربيّ الأصيل في بحوثه اللّسانيّة، وذلك على مدارِ أكثرَ من نصف قرنٍ من حياته، مُجتهدًا في التعريف بجهود النّحاة العرب الأوائل في تعَلُّقٍ شديدٍ وإعجابٍ بها، مدافِعاً عن أصالة فكرهم وتبرئته من تهمة المَنطق الأرسطيّ، خاصّةً في القرون الأربعة الأولى من الهجرة، حيثُ « زعمَ ناسٌ يُتَوَقَّفُ عن قبول أخبارهم، أنَّ الذين يُسَمَّونَ الفلاسفةَ قد كان لهم قبْلُ إعرابٌ ومؤلّفاتُ نحوٍ، وهذا كلامٌ لا يُعَرَّجُ على مثله، وإنّما تشبّهَ القومُ آنِفًا بأهلِ الإسلامِ، فأخذُوا من كتبِ علَمائنا وغيّرُوا بعضَ ألفاظها، وادَّعَوا مع ذلك أنَّ للقوم شِعْرًا، وقد قرأناهُ فوجدناهُ نَزْرَ الحلاوةِ، قليلَ الماءِ، غيرَ مستقيمِ الوزن »(1).

يجتمعُ في فكره –رحمه الله- عبَقُ الأصالةِ ممزوجًا بجديد الحَداثة، مكّنتهُ قراءاتُه المتواصلة من أن يحوزَ ثروةً فكريّةً، ثقافيّةً ولسانيّة، فتجدُهُ واسعَ الاطّلاعِ على مصادر الدّراسات العربيّة والغربيّة على السّواء، ممَيّزًا بين أصولهما، ولقدِ اجتمعت لهُ أهمُّ روافد المعرفة العربيّة من القديم الأصيل من جهة، والأجنبيّة من المبتَكَر الجديد من جهة أخرى، رصيدٌ أهَّلَهُ للخوض في الكتابة اللسانيّة بفهمٍ مميّزٍ أصيلٍ، مُلِمّ بأحوالِ النظريّات المختلفة وما يُوَجَّهُ إليها من نقد، إذ نجدها كمنطلق « **تتفقُ في بعض أجزائها، وتختلِف في بعضها الآخر، بل يكادُ بعضُها يناقضُ البعضَ الآخرَ مناقضةً كاملةً، كلُّ ذلك في فترةٍ زمنيَّةٍ تقِلُّ عن نصفِ قرن** » (2)، وكم من نظريّةٍ « كادَ يُجمِعُ على صحّتِها ونُجُوعِهَا العُلماءُ، قد احتاجت بعد الاختبار إلى أن يُعادَ فيها النّظرُ، لا في جملتها، بل في بعض جوانبها » (3)، برغم عمقها ودقّتِها، متأثّرةً بالتطوّر الفكريّ الهائل الحاصل في هذه النظريّات اللّغويّة المختلفة.

موقف الأستاذ الحاج صالح من التراث اللغوي ومنهجيته في التعامل معه:

إنّ مواكبته – رحمه الله - لكلّ جديد في مجال اللّغة وعلوم اللّسان، لم يقعْ حاجزًا بينه وبين أن يتّخذ التّراثَ اللّغويَّ العربيَّ الأصيلَ مُنْطلَقًا لفِكْرِه اللِّسَانيّ الذي يَتَمَثَّلُهُ امْتِدَادًا لِمَا خَلَّفَهُ النُّحَاةُ القدماء، وأكبرُ دليلٍ على ذلك كُلِّهِ، هو إدراجُهُ بُحُوثَهُ العلميَّةَ ومَقَالاتِهِ اللّغويّةَ تحت إطار مُسَمَّى " النظرية الخليلية الحديثة "، برهانًا منه على تمسُّكِه بالأصالة ووفائه لهذا الفكر النيّر، واعترافًا منه بقيمةِ ما قدّمهُ أولئك اللّغويون القدماء من جهودٍ تضاهي في حداثَتِها ما توصّلت إليه الدّراسات اللّغويّةُ الغربيّة، وقد قام بنسبة تسميَتِها إلى " الخليل " ، " من باب التّغليب، لأنّه كان هُوَ العِمادَ فيها "(4).

يظهر الأستاذُ – رحمه الله- من خلال بحوثه اللّسانيّة نصيرًا للاِجتِهاد الكامنةِ حقيقتُه في الاِبتعادِ عن التقليد الأعمى للعرب القُدامى أو حتّى للغربيين، بحيثُ نتّخذُ أقوالَ البعض « حقائقَ لا تقبلُ الجدالَ وعَدَمَ الإتيانِ بأيّ ابتِكارٍ، لا في الأقوال ولا في الأفعال ... » (5)، فالنّحاةُ الخليليّونَ القُدامى « ونحنُ لهم أتباعٌ في ذلك، مجتهدين لا مقلّدين إن شاء الله "(6)، في دعوةٍ منه إلى جعلِ ما خلّفوه من ثروةِ فكرٍ ولغةٍ، مُنْطلَقًا لبحوث جديدة من خلال فتح مجال الاِجتهاد فيها، وهو يرى بأنّ " سيبويه " لم يَكُ من المقلّدين أبدًا، بل أثرى نظريّةَ أستاذه " الخليل " هو ومن جاء بعده كالأخفش والمازنيّ ... » (7).

ويتجلى من خلال هذه الأقوال أن موقف الأستاذ " الحاج صالح" – رحمه الله- يتميز بالجمع بين الوفاء لأولئك العباقرة الأولين ، فهو يعلن أنه مقلد لهؤلاء، على أن يقتصر مفهوم التقليد على المنهجية الفكرية، حيث يستلزم النظرَ العميق إلى ما أرادوه من المفاهيم والمصطلحات والرؤى اللسانية التي طرحُوها في مجالات اللغة المختلفة، مما يلتقي واللسانيات الغربية التي تعتمدُ على التجربة الحديثة في كثير من المحطات، وكان السبقُ في كثيرها للأول، وهذا ما قد حاد عنه بعض اللغويين من التراثيين المتأخرين كابن مالك، الذي لم يستطع – كما يراه الأستاذ – رحمه الله – أن يفقه ما أراده سابقوه، فكان أن استغلقت عليه مفاهيمهم، فكان نتاجه – ومن سار حذوه – عالة على التراث اللغوي العربي الأصيل، وذلك رغم ما قد يرى من أنه ساهم في بلورة الدرس اللغوي خاصة في جانب الحقل التعليمي.

بيد أنه ينبغي التذكير إلى أن التقليد عند الأستاذ – رحمه الله- لا يعني الانغلاق على أفكار التراثيين، بل ينتصر الأستاذ – رحمه الله- لفكرة الاجتهاد، اعتقادا منه أن العلم نسبي، ومن الخطإ الاعتقاد بالعصمة، أو أن الأول لم يترك شيئا للآخر، وهذا ما يسمح ببلورة كثير من المفاهيم أو تصحيح بعضها تماشيا وتطورات العصر التي تقتضي الدقة العلمية، وهو ما دأب الأستاذ – رحمه الله – على تطبيقه، ثم يمكن القول إن صفة الاجتهاد في حد ذاتها تطبعها صفة التقليد ، باعتبار الأستاذ- رحمه الله – أخذها عن – سيبويه –الذي كان مقلدا لشيخه الخليل، وزاد عليه مجتهدا ، فجمع حينئذ بين الخلتين، فكان أن انتهج الأستاذ " الحاج صالح " ما انتهجه تلميذ " الخليل" رحمهما الله تعالى.

اِنتهَجَ الأستاذ – رحمه الله - في دراساته اللّسانيّة العمقَ والدقّة والموضوعيَّةَ التامّة، نائيًا عن التحيُّز أو الميل إلى الذاتيّة المتعصّبة إلى القديم باسم التّراث، ولا إلى الجديد باسم الحداثة، فالأصالةُ بمفهومها الصحيح عنده تأتي في " مقابلِ التقليدِ لا في مُقَابلِ الحَدَاثَة، فالأصيلُ الذي ليس نسخةً لغيره"(8)، فلم يكن يحتكمُ إلاَّ إلى العلميّة، يُخْضِعُ كلّ الأقوال إلى النّقد والتمحيص، مهما كان مصدرها، عربيًّا أو غربيًّا، فهو وإن وجدته - مثلاً- يمدحُ الفطاحل

من اللّغويين القدماء " في دقّة مناهج تَفْكِيرِهِم وتحليلاتِهِم، وكيفية تَحَرِّيَاتِهِم أثناء عمليّة جَمْعِهِمْ لأَعْظَمِ مُدَوّنةٍ لغويّةٍ، باعتمادهم على منطقٍ رياضيٍّ "(9)، إلاَّ أنَّ هذا لم يمنعْهُ من القول بأنَّ " الكثيرَ ممّا فكّرَ فيه القُدماءُ من علمائنا، يحتاجُ إلى أن يُلْتَفَتَ إليه، ولا يُتركُ إلاَّ إذا أُتِيَ بالدّليلِ على بطلانه "(10)،وذلك بعد إخضاعه لجميع النّظريّات اللّغويّة للإختبار على مِحكّ الصّياغة المنطقيّة الرياضيّة، دون إقصاءٍ لأيّ قولٍ، قديمٍ أو حديث منها، ولك أن تستدلّ على مدى صرامته العلميّة و موضوعيته الفذّة، من خلال ما انتهجهُ من خطوات وأصولٍ، جعلها منطلقًا لتعامله مع التّراث، ويتحدّث عن منهجه العمليّ إزاء التّراث اللّغويّ الذي خلّفهُ القُدماء فيقول : " ولقد التزَمنا بأن نأتيَ على كلّ تأويلٍ نقترحه لكلّ مفهومٍ، بدليلٍ قاطعٍ يَعْصِمُنَا البحثُ عنه والإتيانُ به عن كلّ تعسُّفٍ، وذلك حتّى لا نُحَمّلَ أقوالَ القُدامى أكثرَ ممّا تحتملُه، باعتماد طرُقٍ علميَّةٍ دقيقةٍ للكشف عن الدّلالات المقصودة بالفعل 11"، متلَمّسًا في ذلك التّحليلَ العميقَ للمقولات والمفاهيم والقضايا اللغويّة، بلغةٍ علميّةٍ دقيقةٍ خاصّةٍ باللّسانيّات، خاصّةً في كيفيّة تعامُلِها مع المفاهيم والمصطلحات، حيثُ استطاع – رحمه الله- " تجاوُزَ مرحلةِ التّرجمة اللّسانيّة، إلى مرحلة التفكير العربيّ اللّسانيّ في المَبَادِئِ والأفكار والمفاهيم والمصطلحات، مع مراعاة العلاقة الوثيقة بين اللّسانيّات والعلوم الأساسيّة مثل الرياضيات والفيزياء، وعلوم الحاسوب والعلوم البيولوجيّة و الإلكترونيك "(12)، إذْ من العيب أن تتّصف البحوث اللّغويّةُ في نظره " بالتصفُّحِ السّريع، والقراءة السّطحية فيما يتعلّقُ بها من مراجع، فلا يجوز لباحثٍ يكتفي بعددٍ قليلٍ منها لبناء نظريَّةٍ كاملة "(13) .

أمّا الحديثُ عن أمانته العلميَّة، فشَواهدُ ذلك كثيرةٌ، يَنْقُلُ المعلوماتِ دونَ تحيّز لأيّ طَرَفٍ مهما كان، ثمَّ يُظْهِرُ ما لكلّ من فضلٍ ، يقولُ مثلاً في معْرِضِ حديثه عن " منطق التّحليل اللّغويّ عند العرب "، الكائنةِ حقيقتُهُ في مستوى اتّحادِ الوِحدةِ اللّفظيّةِ والوحدة الإعلاميَّة وهي الإفادة، بأنَّه مستوًى " لم يتفطَّنْ إليه النّاسُ حتَّى يومنا هذا، نستثني من ذلك مدرسة " جان كانيوبين " في جامعة "رين الثانية " بفرنسا "(14)، وفي السّياق نفسِه، وعند ذكره لمفهوم " التّحويل "، يُؤَكِّدُ الدّكتور على أنَّهُ مفهومٌ عربيٌّ " لا تعرفه " البِنَوِيَّةُ "، باستثناء " هاريس "، وهو شاذٌّ، وقد وُفِّقَ " تشومسكي " في إحيائه، غير أنّهُ لم يجعلهُ الأساسَ في كلّ شيء، كما هو الحالُ عند النُّحاةِ العربِ الأوّلين "(15) .

ثمَّ مثلاً وهو في سياق ذكر التّرجمة اللّاتينيّة لكتاب " إحصاء العلوم " للإمام " الفارابي " في القرن الثاني عشَرَ الميلاديّ، والتي قام بها " Girardo Cremonensi "، الذي جاءت فيه عبارةُ " Scientia lingue " مُقابِلَةً لعلم اللّسان، فإنَّ الدّكتور ينفي " أنَّ ما قالهُ " الفارابي " في الكتاب هذا، وفي غيره ممَّا قد تُرجِمَ إلى اللّاتينيَّة، هو مصدرُ ما يُوجَدُ الآنَ في علم اللّسان الحديث، فإنَّ في هذا العلمِ أُمُورًا كثيرةً ابْتُدِعَتْ في زماننا هذا "(16)، ممّا لم يأتِ به النُّحاةُ العربُ الأوّلون.

ومع ما عُرفَ عنه من صرامته في منهجه العلميّ والبحثيّ، مُشْرِفًا كَمَا سَلَفَ من جهة، أو باحثًا ناقِدًا غَيْرَهُ من الباحثين، خاصّةً في طريقة تَعَاطِيْهِمُ السّلبيّ للتّراث العربيّ من جهةٍ أخرى، إلاّ أنّه في أثناء ذلك، يبسُطُ رداء التّواضع والاِحترام، مُعْلِيًا من شأن المُنْتَقَدِين، " فَمَعاذَ اللهِ أنْ نُريدَ الحَطَّ من قيمةِ هؤلاء الزُّملاء، فلا شكَّ أنَّ عِلْمَهُم غزيرٌ جِدًّا في تخَصُّصِهِم، إلاَّ أنَّ هذا لا يمنعُنا من أن نُصَرِّحَ أنَّ الإلْمَامَ بجميعِ النّظريّات العَرَبيَّةِ القديمةِ، هو شيءٌ لازمٌ في تكوين المتخصّص"(17).

التراث اللغوي العربي في كتابات اللغويين المحدثين و موقف الأستاذ الحاج صالح – رحمه الله - : قبلَ الخوضِ في بيان موقف كلٍ من اللغويين المحدثين البارزين في ساحة الفكر اللساني العربي الحَديث، وكذلك تحديدُ موقفِ الأستاذ " عبد الرحمن الحاج صالح"- رحمه الله -، تجدر الإشارة إلى بوادر الحدِيث عَن أهمية ما خلفه اللغويون العرب من تراث قيم، تزامن وحركةً لسانية عربية بمسحة اغترابية – كما سماها بعضُهم -، يتجلى ذلك وعودة أكثر من برز في حقل الدراسات اللغوية العربية الحديثة من الجامعات الغربية، متشبعينَ بفكر لم ينصف كثيرا جهود اللغويين القدامى، وأثقل كاهل فكرهم باتهاماتٍ لا تقوم في كثير من المواضِع على الاعتبارات العلمية والنقد المنطقي الموضوعي، فكان أن بُخس التراثيون حقهم من الظهور على أيدي الخلف، خلافا لما فعله بعضُ المنصفين من المفكرين الغربيين الذين أثبتوا عبقرية العقلية اللغوية عند النحاةِ القدماء، مؤيدين بذلك جهود كثيرٍمن اللسانيين العرب المحدثين الذين يسعونَ جاهدين لرد الاعتبار لهذا التراثِ اللغوي العربي الذي يعتبرُ مرحلةً حاسمةً في تاريخ الفكر اللغوي برمته مثلما ذكر الأستاذ " الحاج صالح"- رحمه الله -، وأكد على ذلك بعض طلبته – ومنهم " مازن الوعر" إذ قال: " لا أُرِيْدُ أن أقول – لأنَّني عربيٌّ - إنَّ التُّراثَ اللُّغويَّ، يُعَدُّ تحوُّلاً كبيراً جِدًّا في مسيرة التُّراث اللُّغويّ العالميّ، ولكنني أقول هذا، لأنَّ الحقائقَ العلميّةَ حَوْلَ هَذا المَوْضُوعِ مُثْبَتَةٌ تَاريخياً، وإنّي لَأُكَرِّرُ مَا كُنْتُ قَدْ ذَكَرْتُهُ فِيْ مَقَالَاتٍ عَدِيدَة، مِنْ أَنَّهُ لَوِ الْتفتَ الغَرْبُ المُعَاصِرُ إلى مَا في كُنْهِ التَّأْرِيْخِ اللُّغَوِيّ التُّرَاثِيّ العَرَبِيّ، لَكَانَ عِلْمُ اللِّسانيَّاتِ الحديث في مَرحلةٍ مُتَقَدِّمةٍ عن الزَّمنِ الّذِي هُوَ فِيه "(18).

إنَّ العلمَ الذي يُطْلَقُ عليه في دول الغرب (linguistics)، والذي اختار له الأستاذ " الحاج صالح "- رحمه الله - تسميَةَ " علم اللّسان "، قد أضحى - بلا شكٍّ- في وقتنا الرّاهن أَحَدَ أهمّ العلوم الإنسانيَّة بالنَّظَر إلى اتّساع مجالات توظيفه، واستِثمار نجاعته وذلك بتطبيق مناهجه، ولسنا في محلّ المبالغة إذا قُلْنا بأنَّ ما استطاعَ أنْ يَتَوَصَّلَ إليه من دِقَّةٍ منهجيَّةٍ وضبطٍ

نظريّ، جعله مثالاً يُقاسُ عليه، وليس هذا إلاّ برهانًا على مدى " أهميَّةِ هذا العِلم في ذاته، وأهميّةِ الدّور الذي يلعبهُ في مجالات البحث "(19).

وتجدرُ الإشارةُ هنا، إلى أنَّ النُّحاةَ القُدامى مِمَّنْ عَنَوْا بمباحث اللّغة، قد أدركوا هذه الحقيقةَ وخاصَّةً في القُرون الأربعةِ الأولى من الهجرة، تلك التي تُمَثِّلُ - بإجماعِ أغلبِ رُوّادِ علم اللّسان العرب، وحتّى من الغرب – فتْرةَ الإبداع الحقيقيّ، ويُسَمِّيها الدّكتور " الحاج صالح " " مرحلةَ النّشاط الأصيل الخلاَّق "، فيها عرَفَ التّفكيرُ اللُّغويُّ العربيُّ ذرْوَةَ الأصالةِ والإبداع، قياسًا مع ما بعدها من الفترات، يشهَدُ على ذلك الدّكتور " تمّام حسّان " قائلاً: " فهذه القُرُونُ الأربَعَةُ الأولى، تُمَثِّلُ بحقٍّ الفِكْرَ اللُّغويَّ المُبْتَكِرَ الخلاّقَ المُبْدِع، ولم يُكتَبْ للدِّراسات اللّغويّةِ العربيّة أن تنمُوَ فيما بعد القرن الخامس الهجريّ، فلقد كان كُلُّ جُهْدٍ يُبْذَلُ بعد ذلك القرن، إمَّا في سبيلِ الشَّرح، وإمَّا في سبيلِ التَّعليق، وإمَّا في سبيلِ التَّحقيقِ والتّصويب "(20)، بحيثُ صار النِّتاجُ اللُّغويُّ لا يَعْدُو أن يكونَ نُسْخَةً مُكَرَّرَةً، تتَضمَّنُ تلخيصًا أو تفسيرًا لِنِتاجاتٍ فكريَّةٍ لُغَويَّةٍ سالِفَة، وقد رأى فيها الدّكتورُ " أحمد مختار عمر " مثالاً لفترةِ الرُّكود والجُمود والتّقليد السِّلْبيّ الذي يفْتَقِرُ إلى الإبداع الفكريّ التّجديديّ، " ففي هذا القرن – يعني الخامس – اكتَمَلَتِ الاِتّجاهاتُ المُعْجَمِيَّةُ، وفي القرن الذي هو قبلَهُ - يعني الرّابع - وصلَ الدّرسُ النّحويُّ والصَّرْفِيُّ و الأَصْوَاتِيُّ إلى قِمَّتِه، ولم يَعْدُ ما تَلاَ ذلك من هذه الدِّراسات أنْ يكونَ ترديدًا أو شرْحًا، أو تَلْخِيْصًا أو مُجرَّدَ نَظْمٍ لأعمالٍ علميَّةٍ سابِقَة "(21)، هذا من ناحيةِ الشّكل وكذلك المُحتَوى، حتّى اعْتُبِرَ كثيرُهُ " عالَةً على التُّراثِ الإبداعيّ كلِّه، أو تحريفًا وتَرَاجُعًا من حيثُ القيمَةُ العلميَّةُ في غالِبِ الأحيان "(22)،باستِثناء بعض الفطاحل الغُرَباء في عصرهم – على حدّ تعبير الدّكتور – من أمثالِ السُّهَيليّ والرَضِيّ الأستراباديّ، وابنِ تيْمِيَّةَ وابنِ خلدون في غير علم النّحو.

و بالعودةِ إلى واقع علم اللّسان في عصرنا الحاليّ عند العرب في واقع بُحُوثِهِمُ اليومَ، فإنَّ الأمرَ لا يَعْدُو أنْ يكونَ نَذِيْرًا يدْعُو إلى الخَطَر، بالنَّظَر إلى شُعُورِنا بالفراغِ المَهُولِ الذي يُوجَدُ الآنَ في صُلْبِ الدِّراسات العربيَّةِ المُتَعَلِّقَةِ بعلمِ اللّسانِ البَشَرِيّ العامّ، بِفِعْلِ " الجَهلِ المُخَيِّم على فئةِ المُثَقَّفين في البُلْدان العربيَّة، فما رأينا في جامِعةٍ عربيّةٍ دراساتٍ منتَظَمَةً في هذه المادَّةِ إلاَّ القليل، في غيرِ أنْ تَجْعَلَ منها مادَّةً مفروضةً، بلْ تُجِيزُ للطَّالِبِ أن يختارَها كمادَّةٍ إضافيَّة "(23).

إنّنا إذا أدْرَكْنا ما لِعِلْمِ اللّسان في أكثَرِ الجامعات الغربيَّة من أهميَّةٍ بالغةٍ، أقَلُّ صُوَرِهَا اعْتِبارُهُ مادّةً أساسيَّةً إجباريَّةً بالنّسبة إلى كلّ أقسام اللُّغات، وفي باقي التّخصُّصات ،كَعُلُومِ النّفسِ والاِجتماع مثلاً، ثمَّ عَلِمْنا بعد ذلك بشكواهُم مِنْ عَدَمِ تعميمه وقِلَّةِ انْتِشارِه، فكيفَ يكونُ حالُنا نحنُ العَرَب ؟ وهو السُّؤالُ نفْسُه الذي طرحَهُ الدّكتور " محمود السّعران "،

وهو يشكو – بألم- عدَمَ أخْذِ هذا الفرع من العلوم المهمة بالذات بعين الإعتبار عند العرب قائلاً : " فإذا كانَ لُغَوِيُّو الغَرْبِ يَشْكُونَ ضآلَةَ ذُيُوعِ عِلْمِ اللّغة، ونُدْرَةَ الإفادَةِ مِنْ نتائجِه، فَأَجْدَرُ بِشَكْوانَا أنْ تَكُونَ الغُرْبَةُ عن هذا العِلمِ بِرُمَّتِه "(24).

إنَّ ما يَشْهَدُهُ البحثُ العربيُّ من تَخَلُّفٍ لسانيّ، يعود إلى " قلَّةِ عَدَدِ المُبْدِعينَ من اللّسانيّين العرب، ممَّن قدْ جَمَعُوا بين الفهم الصّحيح لِمَقاصِد النُّحاةِ العَرَب القُدامى، من أمثال " الخليل بن أحمدَ " و" سيبويه "، ومن جاء بَعْدَهُما من النَّوابِغِ من جِهة، وبَرَعُوا في فهم المَدارس الحديثة في اللّسانيّات "(25)،فكان لهُمُ الفضلُ في أن تَجاوَزُوا مرحلَةَ الاِقتباسِ السّلبيّ والتَّقليدِ الأعمى، وأن يفتَحُوا بابَ الاِجتِهاد في بحُوثِهم ودراساتِهمُ الهادفةِ إلى التّعريف باللّسانيّات للدّارسين والمتعلّمين، أمّا الكثرةُ الغالِبَةُ من هؤلاء، فَهُم مُقَلِّدون متأثّرونَ بالأفكار الغربيَّة، فالذي يراه الأستاذ – رحمه الله – " أنَّ اللّسانيين العربَ متأثّرون بالمَذاهب الغربيَّة، ولا أعلمُ أحدًا – واللّه أعلمُ – منهم حاوَلَ أن يكتَشِفَ عند النُّحاةِ الأوّلينَ مِثْلِ " الخليل " و" سيبويه "، مقاصِدَهُمُ الحقيقيّةَ في كلّ تحليلاتهم، والأفكارَ النّظريَّةَ الأساسيَّةَ التي بَنَوْا عليها مفاهيمَهُمُ النَّحويَّةَ، ممّا لا نجِدُهُ في فحوى اللّسانيّات الغربيّة "(26)،ولَمّا كان تقليدُ بعضِ اللّسانيّينَ من ذَوِي الأصالةِ للعُلَماء القُدامَى، يُعَدُّ في نظَرِ هؤلاء عَيْبًا، كانَ لمَّا " قلَّدُوا الغربيّينَ أنِ استَبْدَلُوا تقليدًا بتقليد "(27)،ولكن شتّانَ بينهما وشتّانَ، صحيحٌ أنَّهم أنتجُوا بذلك فكرًا لِسانِيًّا في شكل بحوثٍ بالعربيَّةِ، غَيْرَ أنَّهُ يفْتَقِدُ إلى رُوحِ الإبداعِ والأصالة، ما لم يُلْفَ فيه تجديدٌ لم يُسْبَقْ إليه من أفكارٍ، في خروجٍ عن فلسفةِ البِنَوِيَّةِ أوِ التّوليدية أوِ التَّحويليَّة، من أجل إظهارِ ما فيها مِنْ نَقائِصَ بنقْدٍ عِلْمِيٍّ يقترِحُ البديل، وقد يتجَلّى ذلك أكثر، عند أولئك الذين أُوْفِدُوا إلى " فرنسا " أو " بريطانيا "، وتَتَلْمَذُوا على يدِ الغربيّين، ثُمَّ يعودون يُعَرِّفُونَ ما تَلَقَّوهُ لأبناء وطنِهم، ناسينَ أو مُتَنَاسينَ ما يُوَجَّهُ إلى ذلك من نقدٍ في الغرب نفسه، وكان من نتاجِ هذا الضّربِ من الإيفادِ العِلْمِيّ المُرْتَجَل – كما يرى الباحث المغربيُّ " محمد الأوراغيّ " – أَنْ " عادَ المُتَخرِّجُ منَ الجامعات الغربيّة بنصيبٍ من ثقافة المُشرفينَ على تكوينه، وليس في وُسْعِه في تعليمِهِ أبناءَ أُمَّتِهِ، إلاَّ أنْ يُرَدِّدَ ما جَلَبَهُ في حقائبِه من هذه الأفكار والقناعات الغربية التي يُطبِّقُونَها خَطَأً على اللُّغَةِ العربيَّةِ، دونَ أن تُنَاسِبَ خصائِصَهَا "(28).

وَ المُلاحَظُ أنَّ أغْلَبَ هؤلاء لم يبْلُغُوا بَعْدُ مُسْتَوى الاِجتِهادِ اللاَّزِم، فَكُلُّ ما يأتيهم من فكر الغرب صوابٌ باعتِبارِهِ يُمَثِّلُ جَديدَ البحثِ الحديث، ومِنْ ثَمَّ وَقَعُوا في الاِعتِقاد بأنَّ " جميعَ ما تصوَّرُوهُ من المَفاهيم، يُمثِّلُ حقائقَ علميَّةً مُسَلَّمًا بِهَا من قِبَلِ هؤلاء العُلَماء الغربيّين، فنتَجَ عن ذلك تجاهُلُ بعضِ الباحثين للتُّراث العِلْمِيّ العربيّ في ميدان اللُّغة "(29)، مِمَّا قدِ اخْتُصُّوا به

دُونَ غيرِهم من المَفاهيم التي أبدعُوها، دُون أن يكون لها نظيرٌ أو مُقابِلٌ في غَيْرِ التُّراثِ العَرَبِيّ، فكان أن أغْرَقُوا بذلك التّأثُّر للغرب الثّقافةَ العربيَّةَ بلسانيّاتٍ اغْتِرابيَّةٍ أجنبيَّة .

ويَخْلُصُ الأستاذ " الحاج صالح "- رحمه الله - بالقول إلى أنَّ المُفَكِّرِينَ العَرَبَ قسمان: أحَدُهُما مُتَأثِّرٌ بالثّقافةِ الأجنبيَّةِ المُعاصِرَة، ويَتَعَصَّبُ لِمَفاهيمها التي يرى فيها الصَّلاحَ المُطْلَق، ويرفُضُ تمامًا ما تَرَكَهُ اللُّغَوِيُّون العَربُ القُدامى، فكانَ لمّا أنْ " عَظَّمُوا الغَرْبَ ومَفَاهيمَه، وجَعَلُوها قُطْبَ الرَّحى في كلّ دراسةٍ، صَغُرَ في عُيُونِهم ما أنْجَزَتْهُ الدّراساتُ العربيّةُ القديمةُ في اللُّغَةِ ومناهِجِهَا "(30)،وفي المُقابِل، قسْمٌ آخَرُ مُنْعَزِلٌ عن كلّ التيّارات الفكريَّةِ العِلْميَّةِ الحديثة، قد أصرَّ على أن يبقَي متَعَلِّقًا بالثّقافَةِ المُتَحجّرَةِ التي تَلَتِ القرْنَ الخامِسَ الهِجْرِيّ، وهذان القِسْمانِ قد أثَّرا سِلْبًا على وتيرةِ البحث اللّسانيّ العربيّ مِنْ حيثُ المَنْهَجُ والجَوْهَرُ والغايَة، ثُمَّ هما وإنِ اخْتَلَفا ظاهِريًّا، إلاَّ أنَّهُما قد يَتَّفِقان في " النَّظْرَةِ الواحِدَةِ إلى ما خَلَّفَهُ اللُّغَوِيُّونَ العَرَبُ القُدامَى، بعُيُونٍ غَيْرِ عُيُونِهم، وكذا بمقاييسَ غيرِ مقاييْسِهِم، وذلك لِتَشَبُّعِهِم بالمَفاهيم الحضاريَّةِ اليونانيَّةِ اللاّتينيَّةِ، وكذا بالمَفاهيم الغَثَّةِ التي ظهرت في العُصُورِ الحالِكَةِ المُتَأخِّرَة "(31).

ويُؤَكِّدُ الأستاذ – رحمه الله - أنَّ مِمَّا يَعْتَرِضُ طريقَ التّنْمِيَةِ الثَّقافيّةِ والتّرقيةِ العِلْميَّةِ، تطبيقَ هؤلاء اللّغويّينَ للنَّظريَّاتِ العِلميَّةِ الغربيَّة، ومناهِجِ التّحليلِ الأجنبيَّةِ على اللُّغَةِ العربيَّة بصفةٍ عشوائيَّةٍ، لا لشيءٍ سوى " أنَّها حديثةٌ، وأنَّها أتَتْنا من تلكَ البُلْدان، فيتَقَبَّلُونها جُزافًا دون نَظَرٍ أو تمحيص، وتُؤَدِّيهِمُ اللّذَّةُ التي يُحْدِثُها كُلُّ جديد – أو ما يبدو أنّه جديد – إلى ترك جميع ما أبْدَعَهُ عُلَماؤُنا قديمًا في علوم اللّسان، ممّا اسْتُغْلِقَ أو قد يستَغْلِقُ فهمُهُ على النّاس أو خَفِيَ عنهم ولاسِيَّما اللُّغويّينَ الغربيّين "(32)،دون أن يطَّلِعُوا اطِّلاَعًا لازِمًا على ما اسْتُحْدِثَ من مناهجَ علميَّةٍ، ونظريَّاتٍ وانتِقاداتٍ بنَّاءةٍ من جهة، وغياب المعرفة العميقة الواسعة بالتّراث العلميّ العربيّ وكذا الغربيّ من جهةٍ أُخرى، تفَادِيًا للأحكام المتسرّعة، وقد لا يخفى ما في مثل هذه الأساليب والأعمال من خطورةٍ تجعَلُها غيرَ مُنتِجَةٍ أو فاعِلَةٍ وإن ظهَرَ ظاهرًا نَفْعُها، غيرَ أنَّ " إثْمَهَا أكبرُ من نفعِها، لما تنطوي عليه من تعفِيَةٍ على الأُصُول وتشْويهٍ لها، مع تلْفيقٍ ظاهرٍ بينَ مُعْطَيات العلْمِ الوافِدِ وكذا العلْمِ المَورُوث "(33)،فكان نتيجةً لذلك – حسب رأي الأستاذ – رحمه الله - أَنْ أَضَرَّ هؤلاء اللّسانيّوُن بسلوكِهِم هذا بالتّراث العلميّ اللغويّ العربيّ، إذْ باعتِمادِهم " على هذه المذاهب الغَرْبيَّةِ، وبمقاييسِهِمُ الخاصَّة بهم، قد هدَمُوا ما بناهُ الأوّلون من العُلَماء "([34])،صحيحٌ أنَّ هؤلاء يملكون اطّلاعًا واسعًا على اللّسانيّات الغربيّة، إلاّ أنَّ جهْلَهُم بلُغَتِهِم نَحْوًا ودلالَةً وصوتًا، جَعَلَهُم – كما يرى الدّكتور السُّوريُّ " مازن الوعر "، وهو أحدُ تلامذة الأستاذ " الحاج صالح " – رحمهُ الله -" يُطَبِّقونَ تلك النّظريّاتِ اللّسانيّة الغربيَّةَ على اللّهجاتِ، ثمَّ على العربيَّةِ

الفُصْحى التي لا يعرفونها حقَّ المَعرفة، فكانت نِتاجاتُهُم فوضَوِيَّةً وسطحيَّةً، كما كانت تطبيقاتُهُم إساءةً للتُّراث اللُّغويّ العربيّ واللُّغَةِ العربيَّةِ "(35).

يُضافُ إلى هذه المثالب كلِّها عيبٌ آخَرُ، يتمثَّلُ في التعَصُّبِ في البحث اللّغويّ إلى مذهبٍ بعينه، أو طريقةٍ دون سواها، وهذا راجعٌ إلى قلَّةِ الإلْمَام بكلّ ما ينبغي على الباحث اللّسانيّ أن يتسلّحَ به انطلاقًا من النَّزاهة، ويرى الأستاذ – رحمه الله - أنَّ الكتابةَ اللّسانيَّةَ في المَشرق أو في المَغرب العربيّينِ حاضرةٌ بكثرة، غيرَ أنّها لا تُراعي – في عمومها - التّمحيص المَوضوعيَّ الدّقيقَ للنّظريّات اللّسانيَّة، بل وتَجعَلُ من المَذْهَبِ المُتَعَصَّبِ له أصْلاً، وما سِواهُ فَرْعًا عليه، وهذا للأسف " سلوكٌ عامٌّ في أيّامنا هذه، فَيُطَبِّقُ الباحثُ " البِنَوِيَّةَ " على العربيَّة، أوِ " النّحوَ التّوليدِيَّ " كما هما، دون نظَرٍ فيهما "(36)،وهذه سِمَةُ أغلبِ الكتابات اللّسانيَّةِ التّمهيديّة وخاصَّةً في المَشرق، فهي و إنْ كان موضوعُها واحِدًا وهو التّعريفُ باللّسانيّات، إلاَّ أنَّها تعتمِدُ على مدرسةٍ واحدة، ولا تهتمُّ بغيرها من المَدارس، ثمَّ تكتفي – حسبَ الأستاذ رحمه الله - " بعرضِ المذهبِ الذي اختارتْهُ دونَ أيّ نقدٍ، حتّى ذلك الذي يُقَدِّمُهُ الغربيُّونَ أنْفُسُهُم ولا يزالون يُقَدّمُونه "(37)، بالنّظرِ إلى تطوُّر العِلْم وحَرَكِيَّتِه .

وكي نقِفَ على حقيقة ذلك، نذكر بعضًا من النّماذج الحيَّة الدّاعِيَةِ إلى التَّمَسُّك بمذهبٍ ما والتّعصُّبِ له، على حِساب ما سِواه، نتَلَمَّسُ هذا مثَلاً عند الدّكتور " عبد الرحمن أيُّوب "، وهو يدعو إلى اعتِناقِ الوصفيَّةِ قائلاً : "... وقدِ اتَّسَمَ التّفكيرُ اللُّغويُّ في العصر الحديث بصفة الموضوعيَّةِ في البحث، واقتنعَ اللُّغَوِيُّونَ بأن يكونُوا وَصَّافينَ للظَّواهِر اللُّغَوِيَّةِ، لا مُفَلْسِفِينَ لها "(38).

وتبلُغُ المبالغةُ، بل ويصِلُ التعصُّبُ ببعضهم، إلى الدّعوةِ إلى استِثْمار ما قدِ اسْتُحدِثَ من المناهج الغربيّة الحديثة في البحث اللّسانيّ، و من أهمِّها " البِنَوِيَّةُ "، التي اعْتُبِرَتْ عند كثيرٍ منهم " إنْ هِيَ اعتُمِدَتْ في الدّراسات اللُّغويَّةِ العربيَّة، عُنْصُرَ تجديدٍ يضمنُ لها البقاءَ والنّجاحَ المستمِرّين "([39])،وقد تبَنَّتْ أكثَرُ الكتاباتِ اللّسانيّة في دولِ المغرب، مبادئَ هذه المدرسةِ، ويعترِفُ الأستاذ " الحاج صالح "- رحمه الله- نفسُه بأنَّهُ كان – مع بعضٍ من زملائِه – " أحَدَ أولئكَ الذين ساهَمُوا في التَّعريف بهذه المَدرسةِ قديمًا، ولَكِنْ دونَ انتِماءٍ لَهَا "(40).

ونجِدُ بعضَ الباحثينَ من ناحيَةٍ أخرى، يدعو إلى اعتِمادِ أحدِ هذينِ المنهَجَيْنِ: البِنَوِيَّةَ أو الوصفيَّةَ، ويزعُمُ أنَّهُما مذهبان يُجَنِّبانِنا الأخطاءَ التي وقَعَ فيها النُّحاةُ القُدامى، بَلْ وبإمكانِهما أن يُوصِلا البحث إلى حقائِقَ كامِلَةٍ واضِحَةٍ ودقيقة، فَعِلْمُ اللُّغةِ على ضوء المنهجين السّالِفَيِ الذّكْرِ

قد " تَجَنَّبَ أخطاءً جوهريَّةً في الفلسفات اللّغويَّةِ القديمة السّابقة، وقدَّمَ مبادئَ لم يَعُدْ شكٌّ في أنّها أكمَلُ وأشْمَلُ وأصْدَقُ وأضبَطُ، واعتَمدَ على وسائلَ وآلاتٍ أدَقَّ مرّاتٍ ومرّاتٍ من وسائلِ النُّحاة الأقدمين وآلاتِهم "(41).

وقريبٌ من هذا ما نجدهُ عند الدّكتور " تمّام حسّان " الذي نجدُه يمدحُ " البِنَويّةَ " أوِ" الوصفيَّةَ " باعتبارها سِمَةَ القرن العشرين، فاصطبَغَ بها كما " اصطبغَ القرنُ التّاَسِعَ عَشَرَ بالصِّبْغَةِ التَّاريخيَّة، ويزدادُ استِحقاقُ عِلْمِ اللّغةِ الوصفيّ لِمَكَانَتِه باعتِباره مجموعَةً مستَقِلَّةً من الموادِّ المُتَرابِطَة كالأصواتِ والمُعْجَمِ والدّلالة "(42)، بل وتَجِدُهُ في موضِعٍ آخَرَ يُصَرِّحُ بأنَّهُ تعرَّضَ للبحث في التُّراث اللّغويّ العربيّ، مُتَّخِذًا المنهجَ الوصفيَّ وسيلةً للدّراسة والتّجديد فيه، مُشيْرًا إلى أنَّ الغايَةَ التي يسعى وراءَها، تتمثَّلُ في أن يُلْقِيَ " ضوءًا جديدًا كاشِفًا على التُّراث اللُّغويّ العربيّ كلِّه، مُنْبَعِثًا من المَنهج الوصفيّ في دراسة اللّغة، وهذا التّطبيقُ الجديدُ للنّظرةِ الوصفيَّة، لَهُوَ أجْرَأُ محاولَةٍ شامِلَةٍ لإعادَةِ ترتيب الأفكار اللّغويَّة تجري بعد " سيبويه "و" عبد القاهِر " "(43)، على حد تعبيره .

غيرَ أنَّ كتابَه هذا، و الذي ضَمَّنَهُ مُحاوَلَتَهُ هذه، وُوجِهَ – كغيره من النِّتاج اللّسانيّ في هذه المرحلة – بوابلٍ منَ النّقد، لِمَا فيه من ثورةٍ على الأصيل القديم، فالكتابُ " يَعُوزُهُ الجهازُ الإصطلاحيُّ الثَّابتُ والمُسْتَقِرُّ، وتنقُصُهُ الدقَّةُ في نقل مصادره، قد أهملَ صاحِبُهُ ذكْرَ المَصادر التي استَقى منها آراءَهُ العَربيَّةَ والغربيَّةَ منها على السَّواء، فهو لم يذكُرْ من المَصادرِ القديمةِ سوى " سيبويه "، وكذا " الجرجانيّ "، و " ابن مالك " و" الأشمونيّ "، في حينِ يزْعُمُ أنَّهُ بِصَدَد نقْدِ تُراثٍ لُغَوِيٍّ كامل "(44).

وليست هذه الثّورةُ الفكريَّة على الثّقافة العربيَّة والمَوْرُوث العربيّ الأصيل، وما نَجَمَ عنها من شدّةِ التَعصُّبِ لمدرسَةٍ واحدةٍ، سوى نتيجَةٍ حتميَّةٍ لوقوع مُفَكِّريها في أحضان التّقليد الأعمى للغربيّين، ومُلاحَظٌ عند بعضِهم كيف يتهَجّمون على النُّحاة العَرَب، مُقارِنينَ بينَ مفاهيمهمُ التي اسْتُغْلِقَتْ عليهم، فلم يفهموها حَقَّ الفهم كما أرادَ مُبْدِعُوها، وبين الذي توَصَّلت إليه اللِّسانيّات الغربيَّةُ - أوِ المدرسَةُ الواحدةُ منها - جاعِلينَ منها حقيقةً مُسَلَّمًا بها، مستهزِئين بأقوالِ القُدامى أو رافضين لَها، وذلك حينما تُخالِفُ أُصُولَهُمُ التي اعتَنَقُوها، وهذا الذي يرفضُهُ الأستاذ " الحاج صالح " – رحمه الله - كلَّ الرّفضِ، وإذا كانَ من حقّ الباحث **" أنْ ينْتَمِيَ إلى أيّ مدرسةٍ شاءَ ممَّا يراهُ صوابًا، فَإنَّهُ ليسَ من حقّهِ أَنْ يَتَجَاهَلَ المَدارسَ الأُخرى، وخاصَّةً مدْرَسةَ المُبْدِعينَ من عُلَمائِنا القُدامى "**(45)، رَحِمَهُمُ اللهُ جميعًا.

في خِضمّ هذا الصِّراع الفكريّ، الْتَقَتْ رَوافِدُ السِّلْبيَّةِ التي ألقَتْ بدورِها بظلالِ التأخُّرِ الفادح على الحَرَكِيَّةِ اللِّسانيَّةِ العربيَّة، بحيثُ لم تستطِعْ تحقيقَ ما كان مَرْجُوًّا منها، فبالإضافةِ إلى بقاءِ عَجَلَةِ البحثِ " **محصُورةً في عدَدٍ قليلٍ من الجامِعاتِ العربيَّةِ، وفي عدَدٍ أَقَلَّ من الباحثينَ الجادِّينَ** "(46) كما يرى الدّكتور " حمزة المزيني "، فإنَّ جُهُودَ مرحَلةٍ تُناهِزُ نِصْفَ قرنٍ أو يزيدُ من عُمُرِ اللّسانيّات العربيَّة المُعاصرة، وفي ظلّ هذه العوامِلِ السّلبيّة، جَعَلَها " **لا تستطيعُ أنْ تُحقّقَ ما كانَ معقُودًا عليها من آمالٍ، سَوَاءً أَفِيْ سعْيِها اللاَّهثِ لِاسْتِيْعابِ المُنْجَزِ الغربيّ، أو جِدَّتِها مع التُّراث، أو إثباتِ جَدْواها لتَحْقيقِ ما يُنَاطُ بها من أهداف، أو حَلّ ما تُنْدَبُ لأجلِهِ من مشكلات مطروحة** "(47)على مستوى الفكر واللّغَةِ العربيَّيْن .

ولما صارَ عسيراً بعدئذٍ وضعُ حقيقةِ النّظريّة اللّسانيَّة الغربيَّة الحديثة في إطارٍ عربيٍّ واضحٍ ومفهومٍ للقارئ العربيّ، أملاً في أن نخرُجَ بنظريَّةٍ لُغويَّةٍ تجمعُ بين التُّراث اللّغويّ العربيّ الأصيل، والنَّظريّات اللّسانيَّة الحديثة، وخَلُصْنا إلى وضعٍ أليمٍ خيَّمَ على الحركة اللّسانيَّةِ العربيَّة، حيثُ لا " **النّظريَّةُ اللّغويَّةُ العربيَّةُ التُّراثيَّةُ قادِرَةٌ على معالجَةِ هذه المُعْطيات، ولا النّظريَّةُ اللّسانيَّةُ الجديدةُ قادِرَةٌ على استيعابِ ما كان قد فَعَلَهُ العربُ القُدَماء** "(48) -كما يراهُ الدّكتور " مازن الوعر "- ، كان لابُدَّ من التوفيق بين النَّزعةِ التُّراثيَّةِ العربيَّة من جهةٍ، والنَّزْعَةِ الحَدَاثيَّةِ الغربيَّةِ من جهةٍ أُخرى، هنا يظْهَرُ الأستاذ " الحاج صالح "- رحمه الله- ، مُتَّخِذًا منْهَجًا موضوعيًّا وَسَطًا قائِمًا على " **رَبْطِ التُّراثِ العربيّ الأصيل بِأَحْدَثِ ما يُنْتِجُهُ العِلْمُ الحديث، ممّا هُوَ مُجْمَعٌ على صلاحيَّتِه، أو بتسليطِ النَّقْدِ البنَّاءِ عليه** "(49)،مع التّركيز على انْتِهاجِ الاختِبارِ مِحَكًّا لِقَبُولِ هذه النَّظريَّةِ أو تلك، فالمَسألةُ عندهُ هي دومًا مسألَةُ " **تجربةٍ واخْتِبارٍ بما تسمَحُ لنا التِّكنولوجيا الحديثة، دون إقصاءٍ لأَيّ قولٍ، قديمٍ أو حديث**"(50)،انطلاقًا من قناعته الرَّاسخَةِ أَنَّ الفكْرَ اللُّغويَّ العربيَّ القديمَ قدِ اهتدَى إلى " **قناعاتٍ أَلْسُنيَّةٍ سَبَقَتْ عَصْرَها، وأَنَّنَا باستِنْطاقِنا لِهَذا التُّراث نُحَاوِلُ رَبْطَ الماضي بالحاضرِ العربيّ، ونُقَدِّمُ إسْهامًا نَظَرِيًّا وتطبيقِيًّا جديدًا في الأَلْسُنِيَّةِ العربيَّةِ الحديثة** "(51).

خاتمة :

يمكن القولُ – بعد هذا العرض – أن موقف ِالأستاذ" الحاج صالح "- رحمه الله - من التُّراثِ اللُّغَويّ القديم يتمثلُ في الانتصار له ولمُبدعيه، إذ جعله في شُمُوليَّتِه مادَّةً لدراساته المُخْتَلِفة، مع قراءة علمية جادةٍ منهُ لمجموعِ التَصوُّراتِ اللُّغَويَّةِ القديمة، عامِلاً على تأويلِهَا وِفْقَ ما تَوصّلَ إليه البحثُ اللِّسانيُّ الحديث، مُوَفِّقًا بينَ نتائجِ الفِكْر اللُّغويّ التُّراثيّ القديم، والنَّظَرِيَّاتِ اللِّسانيَّةِ الحديثة، مُجْتَهِدًا في إخْراجِها في شكل هيئةٍ جديدةٍ تُؤَكِّدُ قيمَتَها الحضاريَّةَ

الرّاسِخة، مُجتهدا في إقناع أولئك المشككين في صلاحية هذا المورُوث القيم، مُعاتباً أولئك الذين تقوقعوا على التراث غير الأصيل ، واضعين وراءَ ظهورهم كلَ مُستجدٍ لسانيٍ حديث، فتجاوزتهُم عجلةُ البحث اللساني الحديث، جامعاً بين التراث والحداثة، إذِ" استَطاعَ بفضلِ منهجِه الوَسَطيّ المُتَمَثِّلِ في المُقابَلَةِ بين أفكار عُلَماءِ اللّسان قديمًا، والمَقُولات التي طوَّرَتْها هذه النَّظريَّاتُ اللّسانيَّةُ المُتَعاقِبَة، وأنْ يَعْمَلَ على تأْصيلِ كثيرٍ من تلك المَقُولاتِ في التُّراثِ اللّسانيّ العربيّ نفسِه "([52])، وتَجَلَّت كُلُّها عمَلِيًّا من خلال نَظَرِيَّته الخليليَّة الحديثة، وهي التي قام باستِقاء أكثر مفاهيمها ومُنطلقاتها من أصيل التّراث، دونما إغفالٍ منه لجديد اللسانيّات الغَربيَّةِ الحديثة، مؤكدًا على أن في التراث العربيِ الأصيلِ حلولاً إيجابيةً لكثيرٍمن العقباتِ اللغويةِ التي تعترضُ النهوضَ بالحركة اللغوية العربية، وتفعيل عجلة التنميةِ اللغوية والرقي باللُغة العربيةِ وضعًا واستعمالاً، شريطةَ فهمِها وفقْهِ كُنْهِهَا كما أراد ذلك الواضعُون الأولونَ من أمثال"الخليل "و"سيبويه" رحمهما الله، ونفعُ ذلك – في نظره – رحمه الله - حاصل- باجتماع قُوى الباحثين اللسانيين- على مستويات اللغة وعلومها المختلفة، وما أحوجَ لُغتَنا العربيةَ اليوم إلى ذلك كي تتبوَأ مكانتَها.

الإحالات:

(1) ابن فارس: الصّاحبيُّ في فقه اللّغة العربيّة ومسائلها وسُنَنِ العرب في كلامها، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط01، 1997م، ص: 43.

(2) نايف خرما: أضواء على الدّراسات اللّغويّة المعاصرة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 09، 1978م، ص:11.

(3) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللّسان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعيّة، الرغاية، 2007م، ص: 178.

(4) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعيّة، الرغاية، 2007م ، ج: 01، ص: 20.

(5) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللّسان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعيّة، الرغاية، 2007م ، ص: 11.

(6) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 01، ص: 247.

(7) ينظر: المرجع نفسه، ص: 20.

(8) ينظر: المرجع نفسه، ص: 267.

(9) عبد الرحمن الحاج صالح: السّماع العلميّ اللّغويّ عند العرب ومفهوم الفصاحة، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية، الجزائر،2007م، ص: 404.

(10) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 01،ص: 202.

(11) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 02، ص: 81.

(12) بشير إبرير: أصالة الخطاب في اللّسانيات الخليلية الحديثة، مجلّة العلوم الأنسانية، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة، جامعة محمد خيضر، بسكرة،ع 07، فيفري، 2005م.

(13) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 01، ص: 16.

(14) ينظر: المرجع نفسه، ص: 324

(15) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 02، ص: 43.

(16) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللّسان، ص:87.

(17) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة، ج: 01، ص: 305.

(18) مازن الوعر: صلة التّراث اللّغوي العربيّ باللّسانيّات، مجلّة التّراث العربيّ، اتِّحَادُ الكُتَّابِ العَرَب، دمشق، ع 48، 1992م .

(19) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللّسان، ص: 08.

(20) تمّام حسّان: اللّغة العربيّة: معناها ومبناها، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، ط: 1994م، ص: 11.

(21) أحمد مختار عمر: البحث اللّغويّ عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط: 06، 1988م ص: 11.

(22) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج: 01، ص: 183.

(23) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللّسان، ص: 08.

(24)محمود السّعران: علم اللّغة: مقدّمة للقارئ العربيّ، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ب ط، ب ت، ص: 28.

(25) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج: 01، ص: 228.

(26) حافظ إسماعيلي علوي وآخرون: أسئلة اللّغة، أسئلَة اللّسانيّات، حصيلة نصف قرن من اللّسانيّات في الثّقافة العربيّة، الدّار العربيّة للعلوم: ناشرون، بيروت، وآخرون، ط: 01، 2009م، ص: 92.

(27) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج: 01، ص: 12.

(28) حافظ إسماعيلي علوي وآخرون: أسئلة اللّغة، أسئلَة اللّسانيّات، ص: 173.

(29) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج: 01، ص: 14.

(30) أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ط: 03، 2008م ص: 10.

(31)عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج: 01، ص: 123.

(32) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللّسان، ص: 174.

(33) سعد مصلوح: في اللّسانيّات العربيّة المعاصرة: دراسات ومثاقفات، عالم الكتب، القاهرة، 2004م، ص: 28.

(34) حافظ إسماعيلي علوي وآخرون: أسئلة اللّغة، أسئلَة اللّسانيّات، ص: 92.

(35) ينظر: المرجع نفسه، ص: 124.

(36) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللّسان، ص: 11.

(37) حافظ إسماعيلي علوي وآخرون: أسئلة اللّغة، أسئلَة اللّسانيّات، ص: 87.

(38) عبد الرحمن أيّوب: دراسات نقديَّة في النّحو العربيّ، مؤسّسة الصُّباح للنّشر والتّوزيع، 1957م، ص: 05.

(39) فاطمة الهاشمي بكّوش: نشأة الدّرس اللّسانيّ العربيّ الحديث، نشأة الدّرس اللّسانيّ العربيّ الحديث، دار إيتراك للنّشر، القاهرة، ط: 01، 2004، ص: 23 .

(40) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج: 01، ص: 229.

(41) محمود السّعران: علم اللّغة: مقدّمة للقارئ العربيّ، علمُ اللُّغة: مُقدّمةٌ للقارئ العربيّ، دار النَّهضة العربيّة، بيروت، لبنان، ب ط، ب ت . ص: 17.

(42) تمّام حسّان: مناهج البحث في اللّغة، مناهج البحث في اللُّغة، مكتب النّسر للطّباعة، دار الكتب، القاهرة،1989م. ص: 29.

(43) تمّام حسّان: اللّغة العربيَّة: معناها ومبناها، اللُّغة العربيّة: مَعْنَاها ومَبْنَاهَا، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المَغرب، ب ط، 1994م .ص: 10.

(44) فاطمة الهاشمي بكّوش: نشأة الدّرس اللّسانيّ العربيّ الحديث، ص 55.

(45) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج: 01، ص: 229.

(46) حافظ إسماعيلي علوي وآخرون: أسئلة اللّغة، أسئلَة اللّسانيّات، ص: 55.

(47) سعد عبد العزيز مصلوح: في اللّسانيّات العربيّة المُعاصِرة، في اللّسانيّات العربيّة المُعاصرة،: دراساتٌ ومُناقفات، عالَم الكُتُب، القاهرة، 2004م .ص: 19.

(48) حافظ إسماعيلي علوي وآخرون: أسئلة اللّغة، أسئلَة اللّسانيّات، ص: 115.

(49) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج: 01، ص: 124.

(50) حافظ إسماعيلي علوي وآخرون: أسئلة اللّغة، أسئلَة اللّسانيّات، ص: 94.

(51) ميشال زكريّاء: قضايا ألسنيَّة تطبيقيّة، دار العِلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: 01، 1993م، ص: 162.

(52) نهاد المُوسى: نظريَّةُ النّحو العربيّ في ضوء مناهج النَّظر اللّغويّ الحديث، دار البشير، عَمَّان، الأردن، ط 02، 1987م، ص 11.

قائمة المصادر والمراجع:

01- ابن فارس: الصّاحبيُّ في فقه اللّغة العربيّة ومسائلها وسُنَنِ العرب في كلامها، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط01، 1997م.

02- أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ط 03، 2008م .

03- أحمد مختار عمر: البحث اللّغويّ عند العرب ، عالم الكتب، القاهرة، ط 06، 1988م .

04- بشير إبرير: أصالة الخطاب في اللّسانيات الخليلية الحديثة، مجلّة العلوم الأنسانية، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاِجتماعيّة، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع 07، فيفري، 2005 م.

05- تمّـام حسّان: اللّغة العربيّة: معناها ومبناها، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، طبعة 1994م .

06-ـــــــــــــ: مناهج البحث في اللّغة، مكتب النّسر للطّباعة، دار الكتب، القاهرة،1989م.

07- حافظ إسماعيلي علوي وآخرون: أسئلة اللّغة، أسئلَة اللّسانيّات : حصيلة نصف قرن من اللّسانيّات في الثّقافة العربيّة، الدّار العربيّة للعلوم: ناشرون، بيروت، وآخرون، ط 01، 2009 م

08- سعد عبد العزيز مصلوح: في اللّسانيّات العربيّة المعاصرة: دراسات ومثاقفات، عالم الكتب، القاهرة، 2004 م .

09- عبد الرحمن الحاج صالح: السّماع العلميّ اللّغويّ عند العرب ومفهوم الفصاحة، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية، الجزائر،2007 م .

10 -ـــــــــــــــــــــ: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية، الجزائر،2007 م ، ج 01.

11- ـــــــــــــــــــــ: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية، الجزائر،2007 م ، ج 02.

12- ـــــــــــــــــــــ: بحوث ودراسات في علوم اللّسان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعيّة، الرغاية، الجزائر، 2007 م .

13- عبد الرحمن أيّوب: دراسات نقديَّة في النّحو العربيّ، مؤسّسة الصُّباح للنّشر والتّوزيع، 1957 م.

14- فاطمة الهاشمي بكّوش: نشأة الدّرس اللّسانيّ العربيّ الحديث ، دار إيتراك للنّشر، القاهرة، ط 01، 2004 م .

15- مازن الوعر: صلة التّراث اللّغوي العربيّ باللّسانيّات، مجلّة التّراث العربيّ، اتِّحَادُ الكُتَّابِ العَرَب، دمشق، ع 48، 1992م .

16- محمود السّعران: علم اللّغة: مقدّمة للقارئ العربيّ، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ب ط، ب ت.

17- ميشال زكريّاء: قضايا ألسنيَّة تطبيقيّة، دار العِلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 01، 1993 م.

18- نايف خرما: أضواء على الدّراسات اللّغويّة المعاصرة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 09 ، 1978م.

19- نهاد المُوسى: نظريَّةُ النّحو العربيّ في ضوء مناهج النَّظر اللّغويّ الحديث، دار البشير،عَمَّان، الأردن،ط1987،02م.